مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/65

رت م د: 1112-685x
رت م د إ: 2588-2236

المجلد: 16 / العدد: 02 / جانفي 2024
ص ص: 253 ـ 267

سوسيولوجيا المخاطر كمدخل لدراسة التغير الاجتماعي

The sociology of risk As an introduction to the study of social change

مريم شريط *
جامعة حمه لخضر
الوادي / الجزائر
Nouris_2007@yahoo.fr

كتيبة بغامي
جامعة الحاج لخضر
باتنة / الجزائر
Katibabegami@gmail.com

تاريخ الارسال: 2022/02/06 تاريخ القبول: 2024/01/15 تاريخ النشر: 2024/01/20

الملخص:

لقد أصبحت مخرجات العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تطرح الكثير من المشكلات على الساحة العالمية اليوم، لذلك بات من الضروري إيجاد استراتيجيات للتكيف ومواجهة هذه المخاطر التي قد تهدد المجتمعات، وهذا هو موضوع علم اجتماع المخاطر. ولقد ظهرت الكثير من المداخل والمقاربات النظرية السوسيولوجية التي تدرس مجتمع المخاطر وأبرزها ما كتبه: أولريش بيك، أنتوني غيدنز، سيغمونت باومان ودافيد لوبيرتون وغيرهم.

وعليه تحاول في هذه الورقة البحثية التطرق لوجهات النظر التي يقدمها هؤلاء العلماء محل البحث حول موضوع الخطر من أجل فهم وقراءة جديدة لهذه المجتمعات وتفسير ما تعشيه بالتالي محاولة التنبؤ بالمستقبل وذلك من خلال المنهج التحليلي عن طريق فحص واستقصاء أهم الأفكار والأطروحات التي كتبها هؤلاء السوسيولوجيون.

حيث خلصت الدراسة إلى أن المجتمعات الحالية شديدة التغير وغير قابلة للتنبؤ، لأنها تعيش تغيرات وتواجه مخاطر على جميع الأصعدة الأخلاقية، القيمية، الاقتصادية، الثقافية، والسياسية.

الكلمات المفتاحية: مجتمع المخاطرة، العولمة، الحداثة الصلبة، الحداثة السائلة، سوسيولوجيا المخاطر.

Abstract:

The outputs of the globalization, political, economic, social and cultural, have become a lot of problems on the world stage today, so it is necessary to

* **المؤلف المرسل.**

find strategies to adapt and face these threats that may threaten the communities have emerged many approaches and approaches to the sociological theory, which examines the risk community, most notably what he wrote: Ulrich Beck, Anthony Giddens, Sigmund Baumann, David Le Berton and others.

Where the study concluded that the current societies are highly changeable and unpredictable, because they are experiencing changes and taking risks at all levels of moral, value, economic, cultural and political.

Accordingly, in this research paper, it attempts to address the viewpoints presented by these scientists in question on the subject of danger.
Key words: risk society; globalization; solid modernity; liquid modernity; The sociology of risk

مقدمة:

لقد أدى التحول والتطور الذي يشهده العالم اليوم، على مستوى العلم والمعرفة والتطورات التكنولوجية إلى نوع من الحراك على حياة المجتمعات باعتبار التغير الاجتماعي سمتها، نتيجة الانتقال من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات والمعرفة والرقمنة، وما فرضه النظام العالمي الليبرالي من انقلاب في موازين القوى، وما صاحبه من ضغوط على العالم الثالث تحت شعار خطاب العولمة والنظام الاقتصادي الجديد، الذي جعل العالم قرية صغيرة تسير في فلك الكونية والكوكبية كما ترى ليزلي سكلير.

إن هذه التحولات والتغيرات رسمت معالم جديدة للخريطة العالمية، حيث انقسم العالم إلى متقدم ومتخلف، وظهور ما سمي بالعولمة الثقافية والاقتصادية والسياسية وازدياد ملامح النظام الرأسمالي الذي يحمل شعارات متعددة مجهولة الغايات كالديمقراطية والحريات والمساواة والعدالة، وقد أدت العولمة إلى اتساع الهوة والفجوة بين المجتمعات، عن طريق وسائل الإعلام وما تحمله من رموز ومعاني أفضت إلى تغير على مستوى القيم وأنماط الاستهلاك والعادات والتقاليد، وزيادة التطور التقني والصناعي وتغير نمط العلاقات والاتصالات والمعلومات، التي ساهمت في تجليات الخطر الذي قد يهدد مجتمعات اليوم من مخاطر ايكولوجية وصحية وتهديد للأمن القومي عن طريق الاحتكار لأنظمة المعلومات والاقتصاد وتجاوز للخصوصيات و الهويات الثقافية.

وفي هذا الصدد ظهر ما يطلق عليه بعلم الاجتماع الجديد والذي يهتم بدراسة المخاطر بمختلف أنواعها. وهو ما تحاول الاتجاهات والتيارات الحديثة وما بعد الحديثة في علم الاجتماع البحث فيه، وباعتبار أن هذا الحقل الميداني من السوسيولوجيا حديث جدا، وهو

وليد التغيرات الراهنة المصاحبة لمجتمعات ما بعد الحداثة، وعليه تهدف هذه الدراسة للتعريف بأهم الأطروحات التي قدمها بعض علماء الاجتماع في مجال سوسيولوجيا المخاطر وهم: ألريش بيك Ulrich Beck، أنتوني غيدنز Anthony Giddens، سيغمونت باومان Zygmunt Bauman ودافيد لوبيرتون David le Berton وذلك من خلال بعض القراءات لأهم ما كتبوا في بعض أعمالهم.

وما دفعنا لولوج هذا الموضوع والكتابة فيه هو الرجوع إلى حقل التدريس من خلال قيام أحد الباحثات -المساهمة في اعداد المقال- بعملية تدريس مقياس علم اجتماع المخاطر لاحظنا أن طلبة علم الاجتماع يحتاجون أكثر إلى أدبيات سوسيولوجية تعرفهم بأهم قضايا علم اجتماع المخاطر وتشكل بالنسبة لهم مدخلا لهذا المجال، ذلك أن البرنامج المقرر يتناول غالبا مخاطر تقليدية أقرب إلى الثقافة العامة منها إلى لغة متخصصة تتجلى في المخاطر البيئية والصحية مثل المخدرات التلوث، الاحتباس الحراري جنون البقر...الخ.

وعليه تتجلى أهمية هذه الدراسة كونها تقدم ملخصا مبسطا حول موضوع علم اجتماع المخاطر التي تهدد المجتمعات عبر الاطلاع على أهم النتائج التي أفرزتها العولمة وما بعد الحداثة، وعليه ازاحه بعض الغموض عن هذا الحقل البحثي.

بناء على ما تقدم يمكن طرح التساؤل الآتي:

ما هي أهم الأفكار التي جاء بها علماء الاجتماع محل الدراسة في مجال المخاطر المنعكسة من جراء العولمة، وما بعد الحداثة؟

01. أولريش بيك Ulrich Beck ومجتمع المخاطرة العالمي (مفهومه، نتائجه وأبعاده)

يعتبر رائد علم اجتماع المخاطرة أولريش بيك من مواليد سنة 1944، وكان مدير معهد العلوم الاجتماعية في جامعة ميونيخ، ودرس في ذات الوقت في London School Of Economics ومن مؤلفاته بالألمانية أطفال الحرية 1997، مستقبل العمل والديمقراطية 1998، عمل عضوا في لجنة حكومية تهتم بشؤون المستقبل تابعة لمقاطعتي بافاريا وزاكسن الألمانيتين، صدر له عن منشورات الجمل: ما هي العولمة ترجمة أبو العيد دودو 1999 وهذا العالم الجديد: رؤية مجتمع المواطنة العالمية 2001.[1]

وفي كتابه المعنون بـ مجتمع المخاطر العالمي يقول أولريش بيك: إن كلمة مجتمع المخاطرة التي وجدتها ووضعتها عنوانا لكتابي سنة 1986 لا تضع مصطلحا لحقبة من حقب المجتمع العصري الحديث ومجتمع لا يتجرد فقط من أشكال الحياة التقليدية، ولكنه يسخط على الآثار الجانبية للتحديث الناجح: أي مع السير الذاتية غير الآمنة والأخطار التي يصعب إدراكها وتطول الجميع، ولا يستطيع أحد أن يؤمن نفسه بشكل مناسب ضدها، وقد توصلت إلى نتائج عديدة يقول بيك:

- يتمتع الخطر بنفس "القوة المدمرة للحرب"، أما قوة الخطر فهي معدية وقادرة على تغيير شكل عدم المساواة الاجتماعية: فالأزمة الاجتماعية قائمة على تسلسل هرمي، أما الخطر الجديد فهو في المقابل ديمقراطي. فهو يصيب الأغنياء والفقراء أيضا. كما تصبح هزته واضحة في كافة المجالات. حيث تنهار الأسواق، ولا تتمكن النظم القانونية من إدراك الحقائق، وتوجه الاتهامات للحكومات، ولكنها تحظى في الوقت ذاته بفرص تصرف وفعل جديدة.
- نحن سنصبح أعضاء في "جماعة أخطار عالمية"، فالأخطار لم تعد شئونا داخلية لدولة ما، كما أن أي دولة لا يمكنها أن تحارب الأخطار لوحدها تماما. وهكذا تنشأ ديناميكية جديدة لعدم التكافؤ الاجتماعي.
- أصبح تقدم العلوم الآن يكمن في واد دور الخبراء. فالعلوم وتكنولوجيا التحول إلى القضايا المرئية أو حالة التصوير الخاصة بها وضع من حيث الأساس المبدأ التالي: "أنا لا أرى مخاطرة إذن لا وجود لمخاطرة" وضعه محل تساؤل. فالمزيد من العلم لا يقلل بالضرورة حجم المخاطرة، بل يزيد من حدة الوعي بالمخاطرة، ويجعل المخاطر تبدو واضحة للعيان "بشكل جماعي" بوجه عام.
- يحدد الخوف الإحساس بالحياة، حيث تحتل مسائل الأمن والحرية والمساواة المراكز المتقدمة من حيث الأولويات على مقياس تدرج القيم، مما يؤدي إلى تغليظ القوانين وزيادة حدتها، أو إلى نوع من "الشمولية ضد المخاطر"، وهو الأمر الذي يبدو منطقيا.
- يزداد انهيار الأعصاب العام بسبب "اقتصاد الخوف"، حيث ينبغي أن يشعر المواطن الشكاك والمعتاد على الريبة بالامتنان إذا تم مسحه ضوئيا، وتعريضه لإشعاع الفحص وتفتيشه واستجوابه بغرض توفير "الأمن الخاص به". هكذا يصبح الأمن مثل الماء والكهرباء، أي سلعة استهلاكية مهمة تنظم من قبل القطاعين العام والخاص.[2]

ويعد كتابه المعنون بـ ما هي العولمة ترجمة أبو العيد دودو بمثابة مدخل إلى الحوار الدائر حول العولمة، يبرز ويوضح صعوباتها ودلالاتها المتعددة وقيمها وأبعادها، ويكشف عن فخاخها الفكرية ويجعل تجنبها ممكنا، ويسعى إلى تقديم إجابات عن العولمة، ويطرح هذا التساؤل بما فيه من بساطة وخطورة: ماذا تعني العولمة، وكيف يمكن تشكيلها سياسيا؟.[3]

كما يتعرض بيك في كتابه هذا العالم الجديد إلى أبعاد نظام الخطر حيث يرى بأن أنظمة الخطر هي أنظمة تخترق حدود القطاعات والفروع، التي تطرح السؤال عن المجتمعات من جديد. وما ذلك إلا لأن هناك من النظرة الأولى تطورات بعيدة عن سوق العمل، ستكون ذات أهمية أكبر بالنظر إلى مستقبل العمل وغيره. من أهمية العواقب المتوقعة منذ مدة طويلة، ومن ذلك أيضا الأزمات المتوقعة قريبا بالنسبة إلى الصناعات القديمة.

يمكن تطوير وبحث أنظمة الخطر بمعنى الاقتصاد السياسي لعدم الاستقرار والقلق والتسريح من العمل في الأبعاد التالية: العولمة، والخطية، والفردية، وتسييس العمل.

وقد لجأ بيك إلى بعض المفاعيم التي تعزز طرحه في تناول مظاهر الخطر وهي:

أ. العولمـــة:

في النظام الفوردي لا يتم العمل والإنتاج إلا من خلال ارتباطهما بالمكان. هذا عن النظام الفوردي لكن الآن يشرع نظام الخطر عن نزع المكان الاجتماعي للعمل والإنتاج بشكل لم تعرف نتائجه المتوقعة حتى الآن والمقصود به العمل عن بعد. وهذا ما يمكن إطلاق عليه صفة افتراضي: وهو الشركة الافتراضية، والإنتاج الافتراضي، والعمل الافتراضي، والتعاون الافتراضي، غير أن الافتراضي لا يفهم بمعنى الوهمي، بل هو تنظيم جديد للعمل والإنتاج يتجاوز المجال والأمكنة الاجتماعية، ولا يتضح خطر العولمة فيما يتضح من أن نتائج طريقة العمل الغامضة مكانيا لا يمكن معرفة اضرارها فحسب وإنما يتضح كذلك من ان أخطار التيارات المالية المتوقعة عبر الحدود تصيب بثقلها العمل الثقافي المرتبط بالمكان، وبذلك تهدد المجتمع والدولة في قواعدهما الأساسية، هناك ملايين من العاطلين والفقراء في إندونيسيا وفي بلدان أخرى بآسيا الجنوبية، ومن المستحيل تأمينهم لا من قبل الدولة ولا من الخواص ضد أخطار العولمة الاقتصادية هذه.

ب. التبيئة:

في الوقت الذي ترتسم فيه الأخطار البيئية والتقنية بصورة عامة في سماء الغرب، الذي يعاني من حساسيته ضد الخطر، تتحطم الأسواق وتتدهور قيمة رأس المال فيرى الخبراء والمجموعات المهنية الكاملة أنفسهم وقد وضعوا في قفص الاتهام العام، ولنقل ذلك بصورة ملموسة: إن الأخطار البيئية تتحول إلى أخطار رأس المال وأسواق العمل والمهنة، وهكذا تنشأ صورة جديدة من المهن، من أمكنة العمل ومن فروع الإنتاج، وسلاسل المنتجات والخدمات، من شأنها أن تحول تحديدات الخطر إلى أسواق جديدة، من مخرجي القمامة ومخططي الزراعة، ابتداء من أغذية تصدير التقنيات البيئية إلى المواد الغذائية الخضراء، ومواد البناء والأثاث، أي تجهيز الحياة اليومية داخليا وخارجيا على التقريب.

التبيئة والعولمة تستلزمان إحداهما الأخرى، وتزيدان من حدتهما بصورة متبادلة، في العقدين الماضيين كانت إيديولوجية السوق العالمية الحرة قد انتشرت على ظهر البسيطة، وكانت تبعة ذلك انتشار تدميرات المحيط في ظل انتصار الليبرالية الجديدة، على غرار ما كان منتشرا بالنسبة إلى التخطيط الاقتصادي المركزي في الاتحاد السوفيتي أيام الحرب الباردة، لقد أصبح الاستهلاك في خلفية مناطق التجارة الحرة، كما تمت في الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة GATT واتفاقية التجارة الحرة لبلدان أمريكا الشمالية NAFTA، أصبح عمليا خارج المراقبة في أغنى الدول، وتضاعف ست مرات في أقل من 25 سنة، كما ذكرت ذلك الأمم المتحدة، بعبارة أخرى الـ20 بالمائة من البشر الأكثر ثراء يستهلكون عموما ستة أضعاف مما كان يستهلكه آباؤهم من المواد الغذائية، والطاقة والماء والمواصلات والنفط والمواد المعدنية.

ج. الرقمية:

هي أيضا تجبر على العولمة (والفردية)، وتمكن منها، لا ينبغي الخلط بين الاقتصاد الشامل الناشئ وبين النظام العالمي، الذي تحدث عنه فيرنان برودويل Fernand Braudel و ايمانويل فاليرستين Emmanuel Wallerstein فرقمية الاقتصاد الشاملة وتشابكه تستهدف اقتصادا تتوفر فيه القدرة على العمل في الوقت الفعلي على مدى الاتساع الكوني ينبغي للرقمية في النهاية أن تكون مساوية للأمية: من يحسن لغة الحاسبات الرقمية يرى نفسه مفصولا عن دائرة الاتصالات الاجتماعية، وهو لن يطبع في الوقت نفسه قواعد التقنية

الرقمية للرأي العالمي بطابعه فقط، إذ أنه سيحدد أيضا اتساع المرونة وأغراضها، وافتراضية العمل وعقلنته، فينشأ نموذج عامل العلم الجديد ل"البدوي العالي التقنية" أو أفضل لبدو العمل المتشابكين فهؤلاء يطورون عن طريق التقنية الجديدة قدرتهم على الوجود هنا وهناك في الوقت نفسه ويلغون ما للمكان من قوة الجاذبية، فلم تعد بالنسبة إليهم هناك من قيمة فهم في الوقت نفسه في العمل وفي البيت، هم معزولون ويعملون مع ذلك مع آخرين ولآخرين، في مكان عديم البعد عبر الحدود والقارات، ولكنهم متشابكون هنا والآن بشكل ملموس.

د. فردية العمل:

قد يكون هذا هو النتيجة المركزية لمرونة العمل، ففيها تلتقي ثلاثة أشياء عملية الحياة العالمية لإزالة التقاليد، بمعنى أن السيرة الذاتية العادية تصبح سيرة اختيارية، أو سيرة عمل من أعمال الهواية، فالعمل يقطع زمانيا وعقديا، ويصبح الاستهلاك فرديا، فتتم نشأة منتجات وأسواق فردية.

ه. التسييس:

من الضروري هنا التمييز بين وجهتي نظر وخطين تطوريين فالأمر هنا يتعلق من جهة بالتسييس الفرعي للاقتصاد والعمل، ومنشأ هذا هو أن البديهيات الأساسية للعمل والحياة تصبح عن طريق أبعاد نظام الخطر المذكورة محل تساؤل، ولكن منشأه كذلك هو أنه لم يعد في إمكان أحد أن يحرص على الحلول الفاصلة في المسائل، التي تتصل بتشكيل الإنتاج والعمل، وبهذا المعنى فإن انعدام اليقين المصنوع الملاحظ علميا وكذلك حقيقة أن خيارات نماذج الحلول والآراء التجريبية تتنافس فيما بينها في جميع حقول العمل، كل هذا يؤدي إلى تسييس فرعي للاقتصاد والعمل، ذلك أن: تعدد الإمكانيات عند التشابك المتزامن للبناءات والتأثيرات يدل بصورة متزايدة على نمو انعدام الضمانات وانعدام الرؤية الواضحة، وبما أنه لابد من أخذ الإمكانيات والنتائج الجانبية المحتملة بعين الاعتبار على نحو مطرد، فسيصبح من الصعوبة المتزايدة تحديد أهداف وحلول معينة وتقديمها على أساس أنها إجبار عيني، ولذلك فإن الآراء تختلف فيما إذا كان ما يحمله كثير من المشاريع المخترعة من ضرر أكثر مما يحمله من نفع وما يطرحه من مشاكل أكثر مما يقدمه من حلول لها.

وقد استوعب الإجماع الفوردي من جهة أخرى لـ"عمل المواطنين" فعلق هذا من جراء لإيمانه بمستوى معيشي متزايد مجال الصراع الطبقي في غرفة الملابس.[4]

يمكن اختصار مفهوم مجتمع المخاطر اذن بمجتمع غير أمن وخطر يصعب ادراكه لا يقتصر على حقبة معينة وإن كان يصف المجتمعات الحالية.

02. أنتوني غيدنز Anthony Giddens (العولمـة والمخاطـر)

في ظل ما تم التطرق إليه سابقا فيما يخص بعض الرؤى والأفكار لـ أولريش بيك حول علم اجتماع المخاطر فإن أنتوني غيدنز يرى بأن العولمة تؤدي على نتائج بعيدة المدى وتترك آثارها على جميع جوانب الحياة الاجتماعية تقريبا. غير أنها، باعتبارها عملية مفتوحة متناقضة العناصر، تسفر عن مخرجات يصعب التكهن بها أو السيطرة عليها، وبوسعنا دراسة هذه الظاهرة من زاوية ما تنطوي عليه من مخاطر فكثير من التغيرات الناجمة عن العولمة تطرح علينا أشكالا جديدة من الخطر، تختلف اختلافا بينا عما عرفناه في العصور السابقة. لقد كانت أوجه الخطر في الماضي معروفة الأسباب والنتائج، أما مخاطر اليوم فهي من النوع الذي يتعذر علينا أن نعدد مخاطره وأسبابه، أو نتحكم في عواقبه اللاحقة.

يواجه البشر في العادة أنواعا من المخاطر، غير أن ما يواجهونه اليوم مختلف نوعيا عن السابق، لقد تعرضت المجتمعات الإنسانية في وقت قريب إلى مخاطر الزلازل والجدب والمجاعات والعواصف وهي كلها بفعل الطبيعة ولا علاقة للفعل الإنساني بها. غير أننا نصادف اليوم مخاطر ناتجة عما لدينا من معرفة وتقانة وأثر الجمع بينهما على عالم الطبيعة حولنا. وتعتبر المخاطر البيئية والصحية التي تتعرض لها المجتمعات المعاصرة من أبرز الأمثلة على المخاطرة المصنعة الناجمة عن تدخل البشر في العالم الطبيعي.

وتتجلى المخاطر المصنعة في أبرز صورها في المخاطر التي تطرحها البيئة الطبيعية. فقد كان من نتائج التسارع في التنمية الصناعية والتقنية أن تزايد التدخل البشري في الطبيعة. باستثناء جوانب قليلة لم يمسها التدخل البشري، الذي اشتمل حتى الآن مجال النمو الحضري والإنتاج والتلوث الصناعي والمشروعات الصناعية الضخمة، وبناء السدود والمصانع المائية، وبرامج تطوير الطاقة النووية. وتضافرت نتائج هذه العمليات بمجموعها، لنشر الدمار في البيئة، ولأسباب يصعب تبينها وبعواقب يصعب حسابها بصور مسبقة.

أن المخاطر الإيكولوجية البيئية تواجهنا في عالمنا المعاصر بصورة مختلفة، ويساور الأوساط العلمية قلق متزايد من الاحتباس الحراري وآثاره على الغلاف الجوي للأرض، حيث تبين في السنوات الماضية أن حرارة الأرض آخذة بالتزايد بفعل احتباس الغازات الضارة داخل

الغلاف الجوي، وينطوي الاحتباس الحراري على نتائج مدمرة: فإذا استمر غطاء الثلج القطبي بالذوبان على نحو ما يفعله الآن، فإن مستوى سطح البحر سيرتفع وقد يجلب الخطر ويلحق الضرر بالتجمعات السكانية البشرية في المناطق الواطئة. ويجري الحديث عن التغيرات في أنماط المناخ باعتبارها أسبابا محتملة للفيضانات الكاسحة التي غمرت مناطق واسعة في الصين سنة 1998، وموزنبيق سنة 2000.

ونظرا للغموض الذي يحيط بأسباب المخاطر البيئية، فإنه لم يتضح حتى الآن أفضل السبل لمعالجتها، ولم تتحدد المسؤولية للقيام بإجراء واضح للحد منها أو تحاشيها. فلقد أوضح العلماء مثلا أن ارتفاع نسبة التلوث قد أسفرت عن نتائج وخيمة وألحقت أضرار جسيمة بتجمعات طيور البطريق، في المناطق القطبية، غير أنه تعذر تحديد مصادر هذا التلوث المؤكدة أو التكهن بآثاره على هذه الطيور مستقبلا، وفي هذه الحالة وفي مئات من الحالات المماثلة يستبعد وضع الخطط أو اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالتعامل مع هذا الخطر لأن الأسباب والنتائج كليهما غير معروفة.

إن ظاهرة الاحتباس الحراري وانتشار أمراض من جنون البقر، والجدل القائم حول الزراعة المعدلة جينيا، كلها طرحت مجموعة من الخيارات والتحديات أم الناس.

حيث يعتقد عالم الاجتماع الألماني أولريش بيك الذي كتب كثيرا عن العولمة والمخاطر أن هذه الأخطار جميعها أسمت في إيجاد ما يسمى بمجتمع المخاطرة العالمي، إن التغير التقاني يجلب معه أنواعا جديدة من الخطر التي يجب على الإنسان أن يواجهها ويتكيف معها. فلا تقتصر المخاطر على الجانبين الصحي والبيئي فقط، بل يتعداه إلى سلسلة تغيرات متداخلة في الحياة الاجتماعية المعاصرة، ومن هذه ا لتغيرات التقلب في أنماط العمالة والاستخدام، تزايد الإحساس بانعدام الأمن الوظيفي وانحصار أثر العادات والتقاليد على الهوية الشخصية، وتآكل أنماط العائلة التقليدية وشيوع التحرر والديمقراطية في العلاقات الشخصية، وأصبحت القرارات الشخصية تنطوي على أكثر من عنصر للمخاطرة لأن مستقبل الأفراد لم يعد مستقرا وثابتا نسبيا كما كان عليه، فالإقدام على الزواج مثلا أصبح خطوة تشوبها المخاطر نسبيا مقارنة بالسابق.

كما أن المخاطر تكتنف وإلى حد أقل، خيارات وقرارات أخرى تتصل بالمؤهلات التربوية والتعليمية، وبالمسارات الوظيفية والمهنية حيث أنه من الصعب التكهن بطبيعة المهارات والخبرات العملية في مجالات الاقتصاد المقبلة المتغيرة على الدوام، ويرى بيك أن جانبا مهما

من المخاطرة يتمثل في أن الأخطار تنتشر وبصرف النظر عن الاعتبارات الزمانية والمكانية والاجتماعية. إن مخاطر اليوم تؤثر في جميع البلدان والطبقات الاجتماعية، وتكون لها آثارا شخصية وعالمية في الوقت نفسه. [5]

03. زيغمونت باومان Zygmunt Bauman (الحداثة الصلبة والحداثة السائلة)

يعتبر المفكر البولندي زيغمونت باومان أحد الذين أثروا مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة، حيث اقترح استبدال هذين المفهومين بحداثة صلبة وحداثة سائلة، فالحداثة الصلبة تلك التي دشنها عصر التنوير في القرن الثامن عشر تأسيسا على تحولات وإرهاصات تنامت منذ انتهاء العصور الوسطى وتصلبت في عصر العقلانية المعروف، العصر الذي تمخض عن مفاهيم كبرى مثل الدولة الحدية، المجتمع والثقافة وغيرها، وكان من سمات حداثة تلك الحقبة ثبات ووضوح الحدود والمعالم سيما مقارنة بما حدث من تحول بعد ذلك، في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية في المرحلة التي يتفق فيها كثير من المحللين ومنهم بعض أنداد باومان على تسميتها بـ ما بعد الحداثة، يرى المفكر البولندي أن صلابة المرحلة السابقة ذابت فتداخلت الحدود وتراخت السمات وازدادت ضبابية وتشابهت حتى صار من الممكن أن نتحدث عن ضبابية أو ذوبان سواء أكان ذلك في حدود الدول ومعالم المجتمع أو سمات الهوية الفردية أو خصائص الثقافات. لم تعد حداثة التنوير الصلبة قائمة وحلت محلها حداثة سائلة هي ما يقصد بها الآخرون بـ ما بعد الحداثة.

حيث يستعمل باومان المفهوم بوصفه مدخلا لتحليل وتقييم المجتمعات والثقافات مركزا هنا على الجانب الأخلاقي أو التعاملات الأخلاقية، فهو يربط الكثير من متغيرات العصر بالنزعة الاستهلاكية المصاحبة للظاهرة الكوكبية، ففي العولمة يتضح كثير مما يعنيه باومان بالسيولة: سيولة البشر بتدفقهم من مكان إلى آخر، وسيولة المال وإلغائه للحدود التقليدية التي أقامتها الحداثة الصلبة، وسيولة الهويات بتغيرها المستمر، وسيولة القيم الأخلاقية من خلال النزعة الاستهلاكية وما عنته من تمظهرات في السلوك وفي المعتقدات. هذه المتغيرات يوضحها باومان في كتابه الأخلاق في عصر الحداثة السائلة. [6]

04. دافيد لوبيرتون David Le Berton (سوسيولوجيا الخطر)

ديفيد لو بيرتون David le Berton أستاذ علم الاجتماع، علم الإنسان وعضو الدينامية الأوروبية (Dynam E) في جامعة ستراسبورغ، عضو في المعهد الجامعي في فرنسا (IUF). قام بإجراء بحوث تتناول التمثلات في الجسم البشري، تحليل السلوك الخطر. وعلاوة على ذلك عمل على كتابات عن الحزن والصمت والوجه.

كان لابد من التعريف بـ ديفيد لو بيريتون لأنه معروف كأنثروبولوجي أكثر منه في ميدان السوسيولوجيا كتب نحو ثلاثين من الكتب التي تتناول انثروبولوجيا الجسد والحداثة، الطبعة الأولى صدرت عن مطبعة الجامعة في فرنسا (1990 آخر طبعة عام 2016). ألف الكتب: عقد، الألم المزمن، وتجديد الذات، اختفاء الذات، إغراء معاصر، بهاء الصوت، أنثروبولوجيا الصوت، والمشي. مديح المسارات، كتبه هي موضوع أكثر من ستين ترجمة في عشرات اللغات، بما في ذلك الاستشعار عن العالم: أنثروبولوجيا الحواس شارك في إخراج قاموس المراهقة والشباب في جامعة Presses الفرنسية. قام بتحرير 16 كتابًا ونشر 213 فصلاً في الكتب وهو عضو في هيئة تحرير أكثر من 15 مجلة علمية وعضو في العديد من اللجان العلمية والهياكل الإدارية الأخرى.[7]

ألف كتاب سوسيولوجيا المخاطر الذي يحمل أفكار مشابهة لما أورده بيك و غيدنز يقدم هذا الكتاب لمحة عامة عن البحوث والمعارف التي تم إنشاؤها في السنوات الأخيرة حول مفهوم المخاطر، والتي أصبحت الآن قضية اجتماعية بقدر ما هي سياسية أو اقتصادية أو قانونية أو الأخلاق إذ يقول فيه أنه: في عام 1980، اقترح P.Lagadec فكرة "المخاطر التكنولوجية الكبرى" وندد بهشاشة بعض الأجهزة التقنية والمخاطر التي تشكلها على بيئتها البيئية والإيكولوجية. لم تعد المخاطرة مجرد وفاة، بل هي حقيقة مسئولية وأصبحت قضية سياسية وأخلاقية واجتماعية، موضوع العديد من الخلافات حول تحديدها وطرق منعها.

تبحث العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص اليوم مسألة المخاطر: دراسة آثار الأنشطة البشرية على البيئة وصدمتها في المقابل على الارتباط الاجتماعي، التلوث، والانسكابات النفطية، وتحويل المحيطات إلى علب نفايات عملاقة، وتدمير الغابات أو البحيرات بسبب الأمطار الحمضية، ونضوب التربة بسبب الأسمدة الاصطناعية، والنفايات النووية تبقى سامة لملايين السنين، وما إلى ذلك، آثارها المناخية والإيكولوجية (الاحترار وندرة المياه وجفاف الأراضي الرطبة والتصحر وتقليل التنوع البيولوجي وإزالة الغابات ونضوب

الموارد الطبيعية وانقراض العديد من الأنواع وذوبان الجليد القطبي وما إلى ذلك)؛ جرد الفشل المحتمل للنظام الإيكولوجي الذي يهدد المناطق السكنية (الفيضانات والانهيارات الثلجية والزلازل والانهيارات الأرضية والحرائق والعواصف وغيرها)، دراسة المخاطر المرتبطة باستخدام الصناعات التي يحتمل أن تكون خطرة (الحوادث النووية أو النزاعات، ومشكلة النفايات، وسرقة المواد النووية، وما إلى ذلك)؛ مشاكل الصحة العامة التي يواجهها الناس بسبب سرعة الطرق وأسلوب الحياة وعادات الأكل والأنشطة الجنسية، إلخ. أو عواقب غير متوقعة من الإنتاجية الصناعية (مرض جنون البقر، وما إلى ذلك)؛ الأزمة الاقتصادية والمالية مع عواقبها الاجتماعية؛ انتشار الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى، وتحول الفضاء إلى ما لا نهاية ... تركز العلوم الاجتماعية على تحديد القضايا السياسية والاجتماعية للخطر، والصراعات بين المجموعات المختلفة، ونقاط الضعف الاجتماعي، ويتم استخدامها لتحليل سلوكيات أو تمثيلات الجهات الفاعلة، لمناقشة أنظمة التحوط والوقاية والمعلومات، إلخ.

إن الظروف الاجتماعية لظهور المخاطر التكنولوجية أو الإيكولوجية، أو وسائل مكافحتها، أو دراسة كيفية شعور السكان المعنيين أو عدم تعرضهم للخطر، أو إدراكهم للمخاطر، هي مجال مميز للأولوية. [8]

النتائج والتوصيات:

تهدف نظرية المخاطرة أساسا إلى فهم التغير الاجتماعي في العالم الحالي، ومن بين الظواهر التي تستدعي التأمل والبحث استعمال التكنولوجيا المتطورة للاتصال بين البشر، كالتليفونات المحمولة، أجهزة الكومبيوتر والتكنولوجيا الرقمية ظهرت منذ مدة قصير نسبيا، لم يكن شباب ستينيات وسبعينيات القرن الماضي قد سمعوا بها، بخلاف شباب الآن الذين لا يعرفون أنفسهم إلا من خلال امتلاكهم لجهاز من الأجهزة الحالية المتعددة، ومن هنا يتضح مدى تأثير التغير على هويتنا. ونظرا لأن الأفراد يقومون بانتقاء أساليب حياتهم من خلال اقبالهم على هذه الأشياء المتاحة، فإنهم بذلك يقومون بتقدير حسابات الخطر. حيث يرى فيرلنج وكارتمل بأن الشباب يشغلون موقع الصدارة في مجتمع المخاطر، لأنهم يعيشون في المجتمع الذي يتصف بأشد صفات التنوع والتحدي والتغير، والذي يتميز بالفرص والتهديدات التي تصاحب طريقهم نحو النضوج، فأساليب حياة الشباب تعكس مرحلة التحول الطويلة نحو النضوج وما يرتبط بها من سلوك يعرضهم للخطر والتي يمكن نعتها بالمناطق الوحشية. [9]

لهناك العديد من الباحثين في علم الاجتماع الذين اهتموا بدراسة المخاطر والذين لم نتطرق إليهم في هذا المقال أمثال: آلان توران حيث سجل أهم خلاصاته في مؤلفه باراديغما جديدة لفهم عالم اليوم، وأيضا في عمله الموسوم نهاية المجتمعات والذي يرى أن المؤسسات الاجتماعية المختلفة مثل العائلة، المدرسة وأنظمة الرعاية فقدت معناها في عصر العولمة.

على غرار زميله الأمريكي ألفين توفلر المهتم بدراسات المستقبل، ومن بين اهتماماته البحثية: مناقشة الثورة الرقمية، ثورة الاتصالات، ثورة الشركات والتميز التكنولوجي، التي تجلت في أعماله: الموجة الثالثة، صدمة المستقبل ...الخ.

ومن خلال هذه الورقة نخلص إلى القول بأن الأخطار الحديثة وليدة عملية التحديث المجتمعي فمجتمعات الخطر مفهوم اصطلحه عالم الاجتماع الألماني أولريش بيك في كتابه «مجتمع المخاطر» الذي ترجم من الألمانية إلى عشرات اللغات. والمجتمعات الخطرة نشأت عقب الثورة الصناعية وظهور التقانة التي قامت على أساس الاعتماد على الآلات لزيادة الإنتاج وما صاحبها من تلوث الهواء نتيجة للانبعاث الدخانية التي كانت تنبعث من مداخن المصانع المختلفة، وكذلك انتشار العولمة. ولقد لاحظنا أن هناك أخطار حديثة مختلفة عن الأخطار التقليدية منها ما هو مادي كالأخطار الصحية والبيئية ومنها ما هو معنوي كالذي يمس الأسرة العادات التقاليد والهوية والقيم.

لذلك من الضروري النظر في مثل هذه المقاربات والنظريات التي تمكن من تحليل وتفسير بعض الظواهر التي أفرزتها العولمة أو مجتمع المعرفة أو ما بعد الحداثة، ونحن كسسيولوجيين نحاول فهم هذه الأفكار والرؤى لمعرفة وتصنيف بعض الظواهر التي برزت مؤخرا نتيجة المخاطر التي أصبحت سمة المجتمع ما بعد الحديث.

وانتشار وباء كورونا خير دليل على ما عرفته البشرية وعاشته مؤخرا من مخاطر، التي تستدعي البحث والتنظير. حيث من خلال المعايشة والملاحظات الميدانية وبإسقاط المقولات السابقة يمكن أن نسجل جملة من الملاحظات والاستنتاجات التي ميزت فترة أزمة كورونا بـ:

- بالنسبة للعالم الغربي طغيان النزعة البراغماتية حيث لاحظنا ما يسمى بالاتحاد الأوروبي لم يتميز بالاتحاد إذ ظهرت سمات عدم التضامن والتضافر واصبحت كل دولة تواجه لوحدها خطر الفيروس. وحتى في البلدان العربية طغيان الذات حسب مقولة نفسي نفسي، ومثال ذلك الاقبال على شراء الدقيق، مع ذلك سجلنا وجود بعض الأفراد الذين يتميزون بروح الجماعة والتضامن.

- انتشار بعض مظاهر التكافل التي ميزت بداية بروز الجائحة من خلال التبرعات، ثم توقفت بعد حين.
- الوعي والثقافة الصحيين في مستوى متدني كمثال بعض الأعراس تمت تسترا عن الأمن مع اختراق البروتوكولات الصحية.
- زيادة اتساع هوة الروابط الاجتماعية بسبب كوفيد 19، مع انحسار في صلة الأرحام.
- بالنسبة للحجر كان لفترة طويلة مقتصرا على المسجد مع تطبيق بروتوكولات صارمة فقط في المساجد، ونحن نعلم دورها الأخلاقي والقيمي وهذا ما يجعله مضطربا. وحتى بالنسبة للمدرسة التي أغلقت لفترة معتبرة بالتالي تجميد دورها وفعاليتها مدة انقطاعها.
- الأخطار مجهولة المصدر وغير متوقعة ولا قابلة للقياس أو التنبؤ خاصة الموجه الرابعة.
- ظهور أخطار أخرى جراء المكوث في المنزل لفترة طويلة وهو ما نجم عنه استعمال أعلى للتكنولوجيات لدى جميع الشرائح والتي نعرف آثارها السلبية خاصة عللا الأطفال.
- ارتفاع معدلات الاستهلاك مقابل انخفاض نسبي في الانتاج وما صاحبه من ارتفاع في الاسعار وطغيان النزعة المادية وظهور الاحتكار.
- كما أن هناك أخطارا أخرى ظهرت مؤخرا كاستفحال الأدوية عند الشباب، بسبب الفراغ والتغير الذي أحدثته كورونا.
- ما يميز أيضا جرعات التلقيح أنها لم تتمتع بالوقت الكافي للدراسة والتجريب مع امتناع بعض الأفراد وبعض الدول عن أخذها، فهي بقدر ما يمكن أن تكون وسيلة للحماية قد تشكل خطرا لأنها لم تأخذ الوقت الكافي والظروف المناسبة للتجريب، وبهذا يمكن القول بأن التلقيح في حد ذاته غير قابل للتنبؤ.

قائمة المصادر والمراجع:

[1] أنتوني غيدنز, علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، ط04، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.

[2] أولريش بيك، ما هي العولمة، ترجمة أبو العيد دودو، ط02، منشورات الجمل، بيروت، 2012.

[3] أولريش بيك، مجتمع المخاطر العالمي: بحثا عن الأمان المفقود، ترجمة علا عادل وآخرون، ط01، المركز قومي للترجمة، القاهرة، 2013.

[4] أولريش بيك، هذا العالم الجديد، رؤية مجتمع المواطنة العالمية، ترجمة أبو العيد دودو، ط01، منشورات الجمل، بيروت، 2001.

[5] زيغمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة سعد البازعي وبثينة الإبراهيم، ط01، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2016.

[6] ميل تشيرتون وآن براون، علم الاجتماع النظرية والمنهج، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012.

[7] Le Breton, David, Sociologie du risque : Que sais-je? Presses universitaire de France, 2012.

[8] - جامعة ستراسبورغ معهد الدراسات المتقدمة: أقسام (دافيد لوبيرتون). www.usias.fr/chaires/david-le-breton

الهوامش:

[1] أولريش بيك، مجتمع المخاطر العالمي: بحثا عن الأمان المفقود، ترجمة علا عادل وآخرون، ط01، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013، ص ص 30-31.

[2] أولريش بيك، ما هي العولمة، ترجمة أبو العيد دودو، ط02، منشورات الجمل، بيروت، 2012.ص13.

[3] أولريش بيك، هذا العالم الجديد، رؤية مجتمع المواطنة العالمية، ترجمة أبو العيد دودو، ط01، منشورات الجمل، بيروت، 2001، ص ص79-82

[4] أنتوني غيدنز, علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، ط04، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص ص 142-143.

[5] زيغمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة سعد البازعي و بثينة الإبراهيم، ط01، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2016، ص ص 10-11.

[6] أولريش بيك، ما هي العولمة، ترجمة أبو العيد دودو، ط02، منشورات الجمل، بيروت، 2012.

[7] http://www.usias.fr/chaires/david-le-breton.

[8] Le Breton David, Sociologie du risque: Que sais-je? Presses universitaires de France, 2012, pp 3-6.

[9] ميل تشيرتون و آن براون، علم الاجتماع النظرية والمنهج، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012، ص ص 397-398.